حجاب الموناليزا

جدليّة الدين والفنّ

طوني صغبيني

"أدون"

منشورات مدوّنة نينار

www.ninars.com

حجاب الموناليزا

جدليّة الدين والفنّ

تأليف

طوني صغبيني

"أدون"

منشورات مدوّنة نينار

www.ninars.com

بيروت 2011

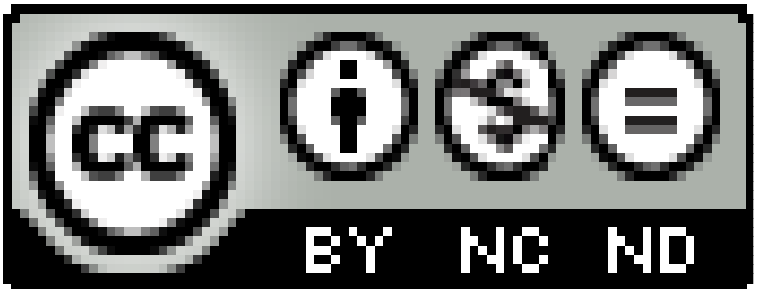

رخصة مشاع ابداعي – بعض الحقوق محفوظة

الكتيّب ومضمونه متوافر تحت رخصة المشاع الابداعي 2011:

حقوق النشر واستعمال النصوص مجّانية لكن يتوجب نسبة المقال الى «مدونة نينار» - طوني صغبيني. يحظّر استخدام العمل لأية غايات تجارية كما يُحظّر القيام بأي تعديل أو تحوير أو تغيير في النص.

Ninar by Tony Saghbiny is licensed under a Creative Commons Attribution-Noncommercial-No Derivative Works 3.0 United States License.
Based on a work at saghbini.wordpress.com.

المحتويات

- حول الكتيّب..... ص 4
- الجزء الأول: حين يصبح الفنّ خطيئة كبرى..... ص 6
- الجزء الثاني: البيانو المحرّم..... ص 9
- الجزء الثالث: حين يصبح المخلوق خالقاً..... ص 13
- خاتمة: الفنّ، الخوف والحريّة..... ص 18

حول الكتيّب

الكتيّب الذي تقرأه الآن هو عبارة عن أربع مقالات منشورة على مدوّنة نينار بين 5 كانون الثاني\يناير و16 شباط\فبراير عام 2010 بعنوان حجاب الموناليزا: جدليّة الدين والفنّ.

المقالات أتت ردّا على التضييق المستمرّ الذي تقوم به بعض الأحزاب الإسلامية في لبنان على تعليم الفنون الجميلة في أكثر من جامعة ومعهد. المقالات سبّبت وقتها ردود فعل عنيفة من بعض الأصدقاء والقرّاء اللذين رأوا فيها هجوماً مباشراً على الدين، رغم أن الدين وممثّليه في هذه الحالة هم من يقوم بالهجوم على الفنون والحريّات العامة لا العكس.

بعد أكثر من عام على نشر المقالات، أتاح لنا إصرار حزب إسلامي كبير في لبنان على الاستمرار بعمليّة أسلمة الجامعات، بأن نختبر شخصياً معاداته للفنّ والحرية بعدما منع معرضاً فنياً في معهد الفنون كنا نشارك فيه مع دزينة من المصوّرين والفنانين الآخرين. حدث المنع رغم أن المعرض لا يحتوي أي مواد مثيرة للجدل لا اجتماعياً ولا سياسياً ولا ثقافياً. إن عمليّة القضم التدريجي التي تحدث عادة من دون أن ينتبه لها أحد لا تزال جارية على قدم وساق، في لبنان وغير لبنان، بتخطيط وترصّد مسبقين من دوائر المؤسستان السياسية والدينية من دون أن تلقى معارضة تذكر.

لهذه الأسباب ارتأينا وجوب إعادة نشر هذه المقالات في كتيّب الكتروني يكون في متوافر الجميع، لكي لا تمرّ عمليّة القضم هذه من دون مقاومة، ولكي يكون القارىء(ة) على دراية بالأسباب الحقيقية التي تدفع المتشدّدين الإسلاميين لمعاداة الفنّ. إن زبدة هذا النصّ تقول أن أسباب عداء المتشددين الدينيين الإسلاميين للفنّ لها جذور في الثقافة الدينية نفسها وليست مجرّد تفسيرات متشدّدة، وتستوجب بالتالي معالجة تربوية-ثقافية شاملة لا يمكن اختصارها ببيان استنكار هنا أو بحديث عن فنّ العمارة الإسلامية هناك.

الكتيّب ليس دعوة للاختيار بين الفنّ والدين الإسلامي، بل إن جوهره يقوم في الواقع على عبثيّة مثل هذه الدعوة، ومن يدعون للاختيار بين الاثنين هم فقط الأصوليون والمتشدّدون الدينيّون اللذين يرون في الفنون الخلّاقة اعتداءً على الخالق والأخلاق

معاً. لكننا في الوقت نفسه لا نخفي قناعتنا بأننا نرى أنه في حال تعارض الدين والفنّ في مكان ما، يجب أن نقف دوماً مع الفنّ والحرية دفاعاً عن قدرة الإنسان على الابداع والخلق، ولو كنا نتقابل في مواجهتنا هذه مع الدين ورجاله. فمهما ابتدع المتشدّدون من تفسيرات، ومهما حاولت السلطات السياسية قتل أدوات التعبير الفنّية في المجتمع، سيجد الفنّ طريقه دوماً ليكون المشاكس الأكبر للطغاة، وسيكون الفنّ دوماً أكبر فعل تكريم يمكن أن يقوم به الإنسان تجاه نفسه وتجاه أي خالق.

طوني صغبيني

بيروت، نيسان 2011

الجزء الأوّل

حين يصبح الفنّ خطيئة كبرى

تُعتبر الصورة المعدّلة للوحة الموناليزا – إحدى أشهر اللوحات الفنيّة في كل العصور – التي تُظهر الموناليزا مرتدية العباءة السوداء بمثابة ذروة التعبير عن "الإسلاموفوبيا [1]"في الغرب.
الصورة تحاكي ما يمكن أن تبدو عليه الموناليزا لو كان المتطرّفون الدينييون مستلمون زمام الأمور، وتصيب كذلك أحد أكثر المواضيع إثارة للجدل حول الإسلام: وضع المرأة. لكن يبدو أنّ المسألة الأهمّ في اللوحة الشهيرة غابت عمّن عدّلها على حاسوبه: لو كان الإصوليون الإسلاميون في السلطة لما كان هناك لوحة موناليزا على الإطلاق؛ ففي الإسلام، الفنّ هو مشتبه به دائم حين الحديث عن الشرّ والخطيئة.

رغم أن التشديد على أن "الفنّ ليس خطيئة" يمكن أن يبدو غريباً وخارجاً عن سياق القرن الواحد والعشرين، إلا أنه في الواقع ليس غريباً عن العالم العربي اليوم. بالنسبة لغالبية طبقة رجال الدين المؤثرة على السياق الثقافي والاجتماعي في العالمين العربي والإسلامي، هذا القول يشبه إلى حدّ بعيد محاولة إقناع أحدهم أن الأرض مدوّرة فيما هو مقتنع حتّى الموت أنّها مسطّحة.

أظهر تقرير صحافي نُشر مؤخراً حول الضوابط الدينية النامية في معهد الفنون في الجامعة اللبنانية[2] أن نقاش الدين والفنّ يعود فارضاً نفسه بقوّة على السياق الفكري والاجتماعي اليوم كما لو كنّا في القرون الوسطى. التقرير تحدّث عن منع كل الموديلات العارية في صفوف الفنون، حتى ولو كانت على لوحة فنّية فقط. بعض الممارسات المسرحيّة التي تم اعتبارها "غير أخلاقية" مُنعت بدورها. وكذلك طال المنع حفلة التعارف التي تُقام سنوياً للطلّاب الجدد، بالإضافة إلى رقصة الدبكة التقليدية التي تحتوي مشاركين من الجنسين.

بالعودة إلى جذور الارتياب الديني تجاه الفنّ، نجد أن إشكاليّة العلاقة بين الاثنين كانت موجودة منذ البدء. الأديان السماوية الثلاث، اليهودية، المسيحيّة والإسلام، رأت أن الفنون هي تعبير عن الشهوة، الغرائز والهرطقات المرتبطة بالأديان الوثنية القديمة. فالأخيرة بجّلت الأرض وآلهتها بطقوس تضمّنت استعمال الموسيقى، الرقص، الرسم والنحت، وغالباً ما احتوت تعبيراتها الفنّية

اليوميّة مواضيع وممارسات جنسيّة. ورغم أن القدماء كانوا ينظرون إلى تلك الفنون والممارسات على أنها "طبيعيّة" أكثر من كونها "جنسيّة"، إلا أن ارتباط الفنّ، الوثنية، والفنون ببعضهم البعض كانت دائماً أحد جذور العداء الديني المعاصر تجاه الفنون.
رغم أن العقيدة المسيحية مثلاً لا تحدّد موقفاً واضحاً من الفنون في نصوصها ولا تمنعها بشكل صريح، إلا أن بعض الآباء الأوّلين للكنيسة أمضوا الكثير من الوقت يحاربون الفنون الوثنية وطقوسها، وبعضهم وصل إلى حدّ منع استعمال الآلات الموسيقيّة مفضّلاً "أن يتم تسبيح الربّ باستعمال الأصوات البشرية فقط". فقط، بعد أن انخفضت أعداد المؤمنين الوثنيين بشكل دراماتيكي وانحسر دينهم إلى حدّ كبير في القرن الخامس ميلادي حتى بدأت الكنيسة تتّخذ مواقف أكثر مرونة تجاه الفنون وبدأت باستعمالها في الطقوس الدينية داخل الكنيسة. وفيما بعد ظهرت الأيقونات البيزنطيّة والموسيقى البيزنطيّة الرائعة وصولاً إلى الحقبات اللاحقة التي شهدت تنامي التعبير الفنّي في هندسة الكاتدرائيات والرسوم والنحت. لكن القاعدة بقيت نفسها: موضوع الفنّ هو تسبيح الربّ والربّ فقط. كل فنّ يشعل الشغف لأي قضية أو شخص آخر، خاصة تلك التي تحاكي الشغف الجنسي، بقي في دائرة الشرّ المحظور. لذلك، الرقص كان ولا يزال، ممنوعاً.[3]

في المقابل، اتّخذ الإسلام موقفاً أكثر صرامة تجاه الفنون، كل أنواع الفنون. الرسول في أيامه منع الشعر، الرسم، النحت والموسيقى. كل هذه الفنون كانت كذلك مرتبطة بشدّة بالحقبة الوثنية ما قبل الإسلام حيث كانت التماثيل الدينية حول الكعبة تُعدّ في الآلاف، وحيث كان الشرب، الرقص والجنسانيّة معالم أساسية في المجتمع.
لكن محرّمات محمّد لم تستمرّ بعد موته لفترة طويلة. فمنذ بدايات الامبراطورية العربية كانت الفنون محلّ احترام واهتمام. الشعر، الرقص، الموسيقى [4] والهندسة التي تتضمّن أنماط زخرفية رائعة كانت فنون شهيرة في الامبراطورية الإسلامية، خصوصاً بعد دخول سكّان بلاد فارس والمغول في الإسلام وإدخال المنمنمات الفارسية والآسيوية في سياق الفنّ الإسلامي. لكن، بعد قرون من الإزدهار، شهد التعبير الفنّي الإسلامي تقهقراً رافق الانحدار البطيء للدولة الإسلامية بعد القرن الثالث عشر.

بعد مضيّ أكثر من أربعة عشر قرناً على الأحاديث المنسوبة للرسول حول تحريم الفنون، ومع صعود التشدّد الديني حول العالم، عادت التفسيرات الصارمة لموقف الإسلام من الفنّ لتفرض نفسها بقوّة على المشهد الثقافي والاجتماعي في العالمين العربي والإسلامي. حتى أنّ الغالبية الساحقة من المسلمين اليوم، حتى المعتدلين منهم، تعتبر أن الالتزام الديني الحقيقي يعني في نهاية المطاف، إلى جانب أمور أخرى، الامتناع عن الاستماع إلى الموسيقى وأخذ موقف أكثر تشدداً تجاه الفنون بشكل عام. هذا العداء الديني تجاه الفنون يُعتبر في نظر المتطرّفين على أنه إشارة من إشارات "الصحوة" في هذه الأيام، والقبول الواسع لهذا التفسير الصارم يحوّله شيئاً

فشيئاً إلى سوط غليظ يمنع، يعاقب ويلاحق الفنانين والشعراء والكتّاب ويضيّق على الميول الفنّية عامة في المجتمع.

كيف حصل هذا الأمر؟ وهل الدين الإسلامي هو عدائي فعلاً تجاه الفنّ أو هي فقط تفسيرات المتشدّدين؟ وماذا يعني ذلك للعالمين العربي والإسلامي؟

هوامش الجزء الأول:

[1]الإسلاموفوبيا: تعبير يستعمله الغربيّون والمسلمون على السواء للدلالة على مفهوم "الخوف من الإسلام"، لكنّ غالباً ما يتمّ استعامله اليوم في سياق الحديث عن "معاداة الإسلام" موازياً بذلك تقريباً مصطلح "معاداة الساميّة."

[2]معهد الفنون الجميلة: نحو الالتزام الديني تابع سيرك، هاني نعيم، جريدة السفير، عدد 16 كانون الأول 2009 الرابط هنا . ويمكن إيجاد تعليقات إضافية لنعيم حول النقاش الذي أطلقه تقريره الصحفي على مدوّنته الشخصية على هذا الرابط :الفنّ عدوّ الله؟

[3]إلا ربّما في بعض كنائس الأفريقيين الأميركيين التي لا تسمح بالرقص، لكنها تسامح تحريك الجسد إذا ترافق مع الموسيقى الدينيّة داخل الكنائس.

[4]في الواقع، أحد أهم إنجازات تلك الحقبة هو التراث الهائل من الشعر والموسيقى. مساهمة الشعراء العرب والموسيقيين للثقافة العالمية لا يمكن نكرانه. أحد أهم المعالم في بلاط الخليفة الإسلامي كان وجود عدد الكبير من الشعراء، المغنّين والموسيقيين فيه. سخرية الواقع اليوم يمكن ملاحظتها بوضوح في أن معظم الشخصيات الفنّية العظيمة لتلك الحقبة مجهولة تماماً بالنسبة لغالبيّة المسلمين، أو حتى تُصنّف على أنها كانت مهرطقة أو غير مؤمنة. على سبيل المثال، إبن باز، أحد الفقهاء المهمّين في العصور الوسطى، الذي خصّص جزء من كتاباته للحديث عن "شرور الفنّ" هو معروف إلى درجة غير قابلة للمقارنة بالمقارنة مع زرياب القرطبي الذي عاش في نفس الحقبة تقريباً، وهو مطرب عراقي موهوب وموسيقي أسّس أحد أقدم مدارس الموسيقى في المتوسّط وواحد من أكثر الشخصيات الفنيّة تأثيراً في تاريخ الموسيقى.

الجزء الثاني

البيانو المحرّم

بالإضافة إلى تحريم معظم الفنون في بداية الدولة الإسلامية، هنالك كمّ هائل من الأدبيات الدينية التي تعبّر عن عداء مفتوح تجاه الفنّ وخاصة الموسيقى، وبالكاد سيعثر الباحث على أي مرجع إسلامي يتكلّم بإيجابية عن أنواع الفنّ وخاصة التعبيريّة منها.
بعض أحاديث الرسول تعبّر عن عدائية شديدة تجاه الفنّ، وتحديداً الموسيقى والرسم والنحت.
في أحد الأحاديث يقول: " كل مصور في النار.[1]"

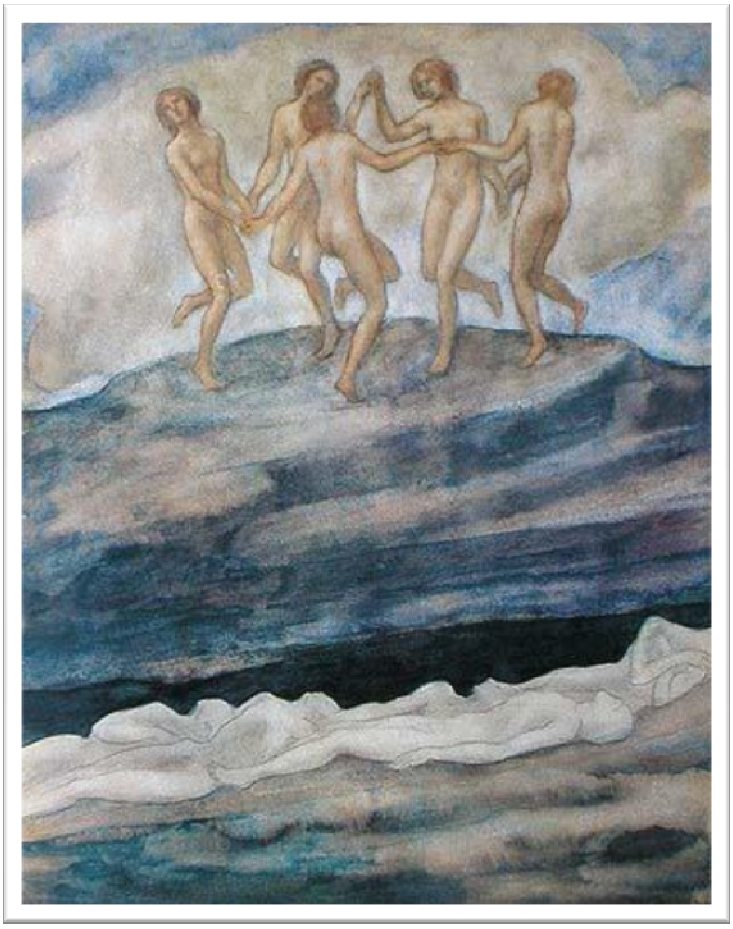

حسناً، هذا الحديث يعني أن أهم الفنانّين على مرّ العصور مثل فان غوغ وليوناردو دافنشي وجبران خليل جبران يحترقون في هذه اللحظة في نار جهنّم. في الصورة، لوحة لجبران بعنوان "التناغم في الأعالي"

في حديث آخر يقول: ‘‘سيكون في أمتي خسف وقذف، ومسخ’’، قيل: يا رسول الله متى؟ قال: ‘‘إذا ظهرت المعازف، والقينات، واستحلت الخمرة.[2] ’’
كذلك، يقول الرسول في حديث آخر: ‘‘ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر و الحرير و الخمر و المعازف، و لينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غدا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة.[3]’’
ويتّفق مؤسسي المذاهب الإسلامية الأربعة على منع الموسيقى. في الواقع، إن معظم الأئمة التاريخيين الذين عملوا على تفسير القرآن والسنّة يجمعون على ذلك باستثناء ابن حزم الذي لا يمنع الغناء بالمطلق لكن يحرّم الآلات الموسيقية وغناء الإناث وكل المواضيع الفنيّة التي لا تدور حول الدين.
واليوم كذلك، نجد لدى طبقة رجال الدين في العالمين العربي والإسلامي عداء عام تجاه الفنّ، وتتراوح مواقفهم بين التحريم الكلّي كما في المملكة العربية السعودية، أو السماح بها في ظلّ مراعاة شروط صارمة كما في حالة رجال الدين الشيعة في لبنان.
ولعلّ الموقف الديني من الموسيقى هو نموذج الموقف الديني العام تجاه الفنون. ففي السعودية، الحكّام الوهابيين لا يكتفون فقط بتحريم الموسيقى بل هي جريمة يُعاقب عليها بالسجن والجلد في الساحات العامّة. قائد الثورة الإسلامية في إيران، آية الله روح الله الخميني، يشيطن بدوره الفّن الموسيقي بل يجعل من منع الموسيقى شرطاً لتحقيق الاستقلال الوطني. يقول الخميني في إحدى مقابلاته: ‘‘الموسيقى تفسد عقول شبابنا. لا يوجد فرق بين الموسيقى والأفيون. كلاهما يخدّران بطريقة مختلفة. إن كنت تريد لبلادك أن تكون مستقلّة، عليك منع الموسيقى. الموسيقى هي خيانة لأمّتنا وشبابنا.[4]’’
حتى المراجع الدينية التي تسمح بالموسيقى تضع عليها قيود مستحيلة. هذه هي حالة الشيخ يوسف القرضاوي، الإمام المتشدّد الذي يبثّ برنامجه التلفزيوني الخاص لملايين المسلمين على قناة الجزيرة. في كتاب عنوانه ‘‘الإسلام والفنّ’’ يمكن الاطّلاع عليه على موقعه الالكتروني[5]، يقول قرضاوي أن الموسيقى ليست ممنوعة إن تمّ احترام الشروط الإسلامية فيها. هذه الشروط تعني أنه يمكن الاستعانة بالموسيقى فقط خلال المناسبات الرسميّة مثل الزواج، عودة أحد الأقارب من السفر والمناسبات الدينية والوطنية. الإمام المتشدّد يشترط أيضاً غياب الآلات الموسيقية، امتناع الموسيقى وكلمات أغانيها عن ‘‘إثارة الغرائز’’، ويضيف أنه من المحرّم أن يكون هنالك مغنّيات إناث، من المحرّم أن يتم الاستماع إلى الموسيقى في أماكن ‘‘حيث ترتدي النساء الماكياج’’ وحيث هنالك اختلاط غير مشروط بين الجنسين، محرّم كذلك الاستماع للموسيقى أو تأديتها في الأمكنة التي تقدّم الكحول أو التي تحتوي أي أمر آخر متعارض مع الأحكام الإسلامية.
الموضوع الشرعي الوحيد للفنّ وفقاً لقرضاوي هو طبعاً المواضيع الدينية والوطنية فقط. وهو يحذّر خاصة من أغاني الحبّ التي ‘‘توقظ الرغبات النائمة وتغري القلوب المريضة’’. الكلمات التي تتعارض مع التعاليم الإسلامية ممنوعة أيضاً، ومنها ‘‘الأغاني التي تتغزّل بصاحب العيون الجريئة![6]’’

نظرة قرضاوي للفنّ والموسيقى متناغمة إلى حدّ كبير مع نظرة بعض رجال الدين الشيعة وتحديداً اللبنانيين والإيرانيين منهم. العلّامة الشيخ محمد حسين فضل الله، صاحب الاحترام الواسع في لبنان، يقول: "إن المحرم من الموسيقى هو ما يكون مثيراً للغرائز ومنفتحاً على الشهوات وهو الذي يعبر عنه الفقهاء بما يتناسب مع ألحان أهل الفسوق، وأما الموسيقى الهادئة التي تريح الأعصاب والتي تحمل فكراً وتحمل روحية معينة، أو الموسيقى الحماسية فجائزة.[7]"

الموقف الشيعي الأكثر تسامحاً تجاه الموسيقى سمح ببروز بعض التجارب الموسيقية الدينية المهمّة في إيران ولبنان. الموسيقى الحربية والوطنيّة كانت إحدى الأدوات التعبوية الرئيسية التي استعمتلها الثورة الإسلامية في إيران خلال الحرب مع العراق في الثمانينات، واليوم هذا النوع من الموسيقى هو إحدى الأدوات الأساسية في استراتيجية الإعلام والتعبئة للمقاومة الإسلامية في لبنان – حزب الله. فرق الإنشاد المرتبطة بالحزب أطلقت حتّى الآن عدّة ألبومات، لكن موسيقى حزب الله تُصنّف عادة ضمن خانة "الإنشاد"، الذي يؤدّى فقط بأصوات رجال مع أدوات موسيقية محدودة كالطبل أو من دون أدوات موسيقيى على الإطلاق، وحيث تتحدّث الكلمات فقط عن القضايا الوطنية والدينية. "الإنشاد" هو شرعي وفقاً للعديد من المراجع السنيّة أيضاً.

* * *

ينسحب الموقف الديني حول الموسيقى على معظم الفنون الأخرى، خاصة النحت والرسم حيث يوجد حولهما إجماع مطلق أنهّما محرّمان.[8]
أمام هذه الوقائع، من السهل علينا فهم تواضع المساهمة الإسلامية والعربية في التراث الفنّي الإنساني إذا ما وضعنا الأدب والهندسة جانباً، فمن الصعب تخيّل أن مجتمعاً يحرّم الموسيقى ويعتبر الرسم والنحت خطيئة يمكن أن يكون قادراً أبداً على إنجاب واحتضان فان غوغ أو موزارت أو رامراندت محتمل من بين أفراده.
يمكن قياس تأثير ذلك على الميول الفنّية في المجتمع العربي من خلال جولة صغيرة على المنتديات الإسلامية. في أحد المنتديات، عبّرت تعليق لمعلّمة بيانو شابّة عن هذه القضية خير

تعبير. أستاذة الموسيقى التي تعيش في الإمارات العربية المتّحدة صُدمت من الموقف الديني تجاه الموسيقى، وكتبت تعليقاً على مقال إسلامي تناول هذا الشأن:
"المقال دمّرني من داخلي لأني أعمل مدرّسة موسيقى وأريد ان تعطيني حل لما أنا فيه مع العلم اني اعلّم التلميذات أغاني دينية ووطنية ولكني استخدم الآلات الموسيقية. ومع العلم أيضا اني احفظ ابنتي القرآن وهي ما شاء الله عمرها 3 سنوات ونصف وتحفظ جزء من سورة البقرة، ولكن الآن الدنيا أظلمت بوجهي لإحساسي أن أموالي حرام. فماذا أفعل أفيدوني أفادكم الله فأنا متعبة جدا والله العالم."
طبعاً ستكون متعبة، فقد أقنعها المتعصّبون الدينيون، ومعها ملايين المسلمين غيرها، أنها ستدخل إلى النار لمجرّد أنها تعلّم الأطفال التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم باستعمال أرقى وسيلة تعبير توصّل إليها البشر: الموسيقى.
لذلك السؤال الذي يبقى هو... لماذا يكره الله البيانو لهذه الدرجة؟

هوامش الجزء الثاني:

[1]رواه البخاري رقم 2225 ، ورواه مسلم رقم 2110

[2]السلسلة الصحيحة الألباني 2203

[3]) " [3]رواه البخاري تعليقا برقم 5590، ووصله الطبراني والبيهقي، وراجع السلسلة الصحيحة للألباني 91.(

[4] Quoted in Amir Taheri, *The Spirit of Allah: Khomeini and the Islamic Revolution,* (Adler & Adler 1986), p259.

من المهم أن نشير إلى أن الخميني اتّخذ موقفاً أكثر ليناً تجاه الموسيقى في وقت لاحق، لكنه وضع لها شروطاً كثيرة كما في حالة الشيخ يوسف قرضاوي الذي سنفصّل موقفه في المقاطع التالية.

[5]يوسف قرضاوي، الإسلام والفنّ، الكتاب يمكن إيجاده على هذا الرابط" :الإسلام والفنّ."

[6]يرتكز قرضاوي في هذا الأمر على الآية: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ... وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن"، (النور: 30، 31). وعلى حديث للرسول يقول فيه: "لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة."

[7]الشيخ محمد حسين فضل الله في حديث له حول الفنّ والموسيقى.

[8]هذه المسائل ستُناقش بإسهاب في المقال التالي.

الجزء الثالث

حين يصبح المخلوق خالقاً

Figure 1: الله، الإنسان والخلق. رسم لمايكل أنجلو على سقف كنيسة سيستين في روما

تقدّم طبقة رجال الدين، ومعها المجموعات السلفية والأصولية والمتشدّدة، تبريرات "منطقية" شتّى لتفسير عدائهم تجاه الفنّ بشكل عام.
التبرير الأكثر انتشاراً هو الذي يلبس رداء الدفاع عن "الأخلاق" والآداب العامة من الإفساد الذي "تشجّع عليه الفنون". وفق المنظور الديني الشعبي (وإلى درجة ما في الواقع)، ترتبط الفنون وخاصة الموسيقى بالكحول، الرقص، الجنسانيّة والتعبير الحرّ عن الأحاسيس والمشاعر؛ أي بما يتعارض مباشرة مع روح الدين.

لذلك لن يغيّروا رأيهم إن عدّدت لهم كل الدراسات العلمية التي تبرز التأثير الإيجابي للموسيقى على الصحّة النفسية والجسديّة للبشر، الحيوانات، وحتّى النباتات .[1]ولن يقتنعوا كذلك إن ناقشنا عظمة الجسد البشري التي عبّرت عنها الرسوم والمنحوتات العارية لليوناردو دافنشي، أو إن قلنا أن التعبير الفنّي عن الجنسانية أو العري هو طبيعي كما الجسد البشري نفسه. كل هذا

الفنّ بالنسبة لهم هو عملية شرّيرة تلهي الناس عن العبادة وتهدف "لإيقاظ الغرائز الخبيثة" الهاجعة داخلهم (ربّما لهذا السبب لم تُصنع جنّة الله لمن يستمع لفيروز أو يستمتع برسوم بيكاسو، لكن لأولئك الذين يعبدونه بصمت خمس مرّات في اليوم).
لكن غيرة الله وفقاً للقرآن والسنّة لا تتوقّف على قضية التهاء المؤمنين عن العبادة، بل يبدو أن أكثر ما يزعجه هو محاولة الإنسان تقليد "عمله"، وهنا يكمن السبب الحقيقي في العداء الديني للفنّ. إن فنّ الخلق، حين يتمّ بأيادٍ بشرية يُعتبر عصياناً لإرادة الله؛ فالإنسان وفقاً للإديان غير قادر على محاكاة عمل الله أو فهم حكمته ومقدّساته، الإنسان وُلد ليَعبد لا ليكون إلهاً خالقاً.

لتفسير هذا الأمر، علينا أن نلقي نظرة مقتضبة على الفنّ الإسلامي. الأمر الأوّل الذي يتعلّمه دارس الفنون الإسلامية البصرية هو أنها تركّز على الأشكال والأنماط التجريديّة، مثل تلك الموجودة على الجدران والأسقف الرائعة للمساجد الكبرى. وبالمقارنة مع ثقافات أخرى، الخاصيّة التي تميّز الفنّ الإسلامي البصري هي الغياب الملحوظ للمواضيع التي تعبّر عن الحيوانات والبشر، رغم بعض الاستثناءات التي نجدها خاصة في الفنّ الفارسي والآسيوي. وسبب هذا الغياب هو لأن التعبير عن هذه المواضيع محرّم، سواء كان ذلك برسم أو نحت.
موقف الرسول كان قاسياً تجاه "المصوّرين". في حديث له يقول: "كل مصوّر في النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم .[2]"في حديث آخر يقول: " أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذي يضاهون بخلق الله .[3]"كذلك: " "إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم) [4]"ليبرهن الله لهم أنهم لا يستطيعون مضاهاته لأنه لا يمكنهم نفخ الحياة في ما يصنعون).
وتشرح المصادر الإسلامية أن المقصود بكلمة "مصوّر" هو الرسّام والنحّات. لكن الرسول لم يحدّد ما إذا كان يقصد كذلك المصوّر الفوتوغرافي، مصوّر الفيديو والمصمّم الغرافيكي تاركاً من فسّر النصوص الدينية من بعده في حيرة من أمره حول مصير هؤلاء "المصوّرين."
لكن لم يحرّم الدين كل مواضيع الرسم بل حرّم بشكل خاص رسم "ذوات الأرواح" كالبشر، الحيوانات والطيور..ألخ.

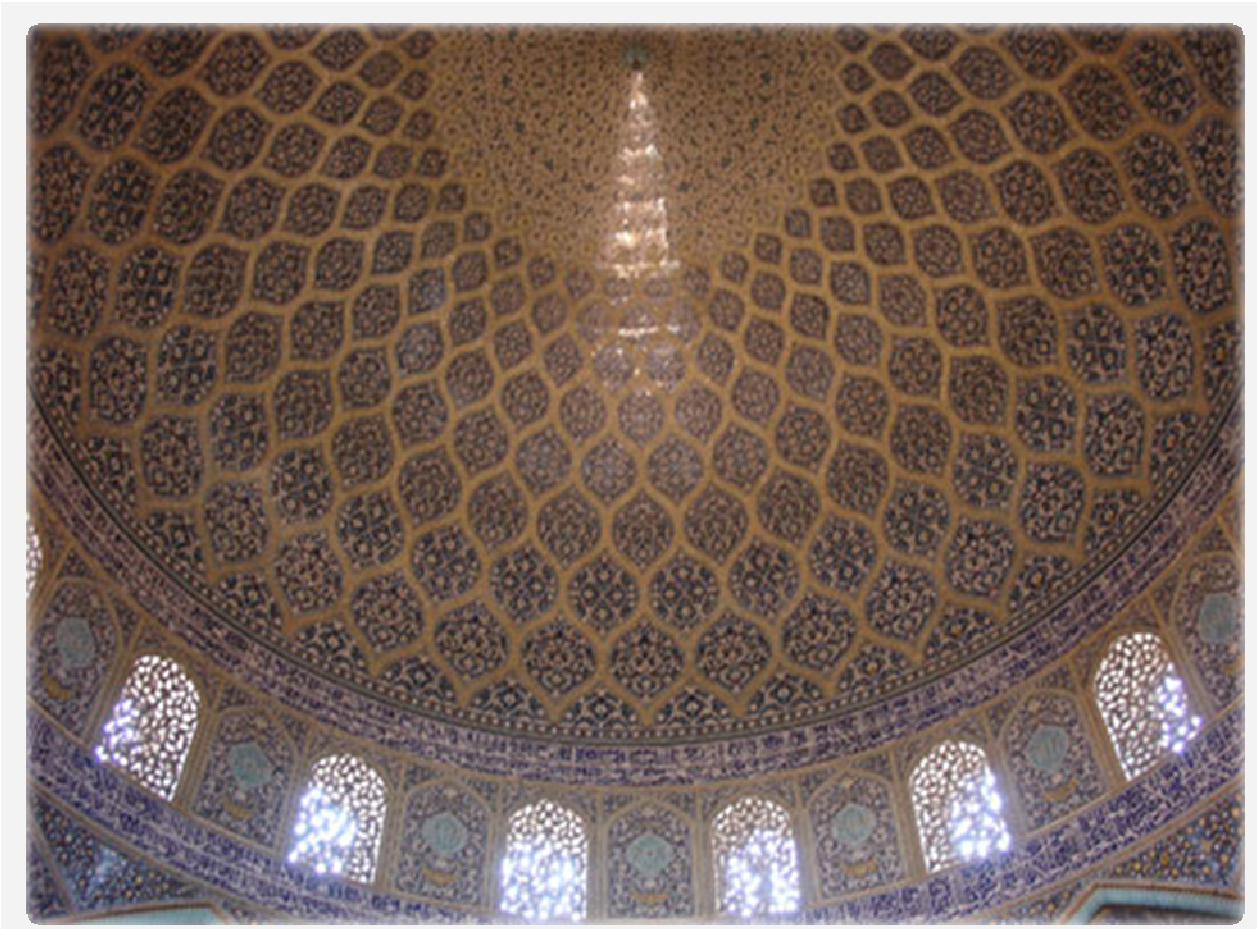

مثال على الأنماط الإسلامية على سقف جامع لطف الله في أصفهان - إيران

من الواضح أن النصوص الإسلاميّة تعتبر أن الخلق الفنّي هو محاكاة لخلق الله، خاصة إذا ما كان الموضوع هو الإنسان. فالـ"تصوير" هو في نهاية المطاف أحد صفات الله! يقول القرآن الكريم" :هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ المُصَوّر .[5]"الخلق الفنّي إذاً يهدد مكانة الله؛ هو يسمح للإنسان أن يبدو مساوياً للإله في قدرته على الخلق، وهل من مجال أفضل من الموسيقى والرسم والنحت لتظهر وتُصقل فيه هذه القدرة بأبهى حللها؟ هل من مثال أجمل على قدرة الخلق من القدرة على إعطاء أقسى الأحجار شكلاً واسماً وحياة؟

القدرة الفنّية للعقل البشري تهدّد الدين لأنها تضيء على واقع أن البشر اليوم يمتلكون خيالاً أقوى وقدرة إبداعية أعظم من الله نفسه كما يبدو من خلال النصوص الدينية. وبتعبير صديق لي، طارق، متحدثاً عن الموسيقى يقول: "إن الموسيقى عدوة الله، لأنها تأخذ الذهن البشري إلى أماكن سحرية يخشى المؤمنين أن تكون أشد أسراً وجمالاً من الجنة .[6]"ويضيف أن العدائية تجاه الفنّ تهدف كذلك لقمع التعبير عن الشكوك والأسئلة البشرية، التعبير عن التساؤلات الوجودية والعقلانية التي لم ينجح الدين في الإجابة عليها.

القدرة على الخلق، الشبيهة بقدرة الإله، هي السبب الحقيقي للعدائية الدينية تجاه الفن؛ فالأخير يكشف عن الإله النائم داخل كلّ إنسان، يكشف عن الألوهية البشرية. هذه الخلاصة تطرح سؤالاً لا بدّ منه: لماذا لم تسهّل الأديان الأمر وتجعل من الفنّ على أنه تجربة توحيدية ‘‘بين الشعاع والشمس’’ أو بين الإنسان والله بحسب المفردات الصوفية والغنّوصية، واعتبرته في المقابل على أنه انقلاب خطير في الأدوار حيث يتحوّل المخلوق إلى خالق، وحيث يتحوّل الخالق – الله – إلى مجرّد منحوتة حجرية؟

الإجابة بسيطة: بما أن أحد المساعي الرئيسية للدين هي السيطرة على البشر، سيكون إلهها دوماً إله غيّور يطلب فقط مؤمنين مكرّسين لعبادته بالكامل – عبيد (من الملفت للنظر أن مرادف كلمة ‘‘مؤمن’’ في اللغة العربية هي كلمة ‘‘عبد’’). الإيمان بالقدرات البشرية – بالقدرة البشرية على ‘‘التألّه’’، لا يمكنه التعايش مع مفهوم الإله الذي يريد البشر عبيداً له.
لطالما أرهبت هذه القدرة الأديان، وأغرت الفلاسفة الملحدين كفريدريش نيتشه على الارتكاز عليها لإعلان موت الآلهة. ففي نهاية المطاف، إن إله يخشى القدرات البشرية لهذه الدرجة يخشى لهذه الدرجة هو إله جعل من اغتياله ودفنه أمراً سهلاً. يختصرها نيتشه بالقول:
‘‘الخلق، إنه الخلاص الأكبر من الألم.
في السعي إلى المعرفة أيضاً، لا أشعر إلا بلذّة إرادة الإنجاب والتحوّل؛ وإذا ما كانت هناك براءة ما في أحكامي فإنّما يحصل ذلك لأنها تحمل في صلبها إرادة الإنجاب.
بعيداً عن الله وعن كلّ الآلهة ساقتني هذه الإرادة؛ ما الذي كان يمكننا أن نبدع لو كانت هنالك آلهة؟[7]’’

‘‘بعيداً عن الآلهة’’ تأخذنا هذه الإرادة، لكن بالتأكيد توصلنا إلى مكان أقرب إلى السماء؛ البشر ‘‘ولدوا ليطيروا’’، ليبدعوا ويخلقوا، لا ليكونوا عبيد!

هوامش الجزء الثالث:

[1]أظهرت الأبحاث في مجال العلاج عبر الموسيقى أنه للأخيرة تأثير كبير على الصحّة البشرية: تساعد العمليّة الهضمية، تخفّض ضغط الدم وتساعد على إبطاء دقّات القلب، تساعد على التغلّب على القلق وتساعد على تخفيض الهرمونات التي تؤدّي إلى التوتّر مثل الكورتيزول والأدرينالين، تؤثّر على العمليّة التنفسيّة، تخفّف التوتر في العضلات

وأخيراً تحسّن نظام المناعة. تظهر الأبحاث أيضاً أن الموسيقى تحسّن إنتاجية وفعاليّة الفرد، وتلعب دوراً مهماً في علاج العوارض النفسية كالاكتئاب، توتّر ما بعد الصدمةPDSD ، وحتّى الجنون. أحد الأبحاث تفسّر سبب هذا التأثير العميق للموسيقى على الإنسان بالقول: "الموسيقى تدخل إلينا لأننا مخلوقات إيقاعيّة تناغميّة، هنالك إيقاع في التنفّس، في دقّات القلب، في موجات الدماغ، في حركاتنا، وفي كلامنا. يبدو أن تأثير الموسيقى يكمن في الطريقة التي تصل وتؤثّر بها الأصوات الموسيقية على الدماغ". للموسيقى أيضاً تأثير إيجابي على الحيوانات والنباتات، وأثبتت تجارب عديدة أنها تحسّن إنتاجية الحيوانات والنباتات المثمرة. لقراءة المزيد حول هذه المواضيع:

-أهم المراجع باللغة الإنكليزية:

- This Is Your Brain on Music: The Science of a Human Obsession, Daniel J. Levitin .
- An Introduction to Music Therapy Theory and Practice, several authors, (edited by the American Music Therapy association).
- Case Studies in Music Therapy, Kenneth E. Bruscia.

موارد موجودة أونلاين::

- The Mozart effect :
- Effects of music and sound on human health, Roer wicke Ph.D, Herbalist review magazine, issue 2002 # 1,

[2]صحيح البخاري، حديث صحيح، رقم 2225 . أيضاً ورد في صحيح مسلم، رقم 2110.

[3]صحيح البخاري، حديث صحيح، رقم 5954 ، ورواه مسلم أيضاً، رقم 2106. لكن يبدو أن هذا الحديث أطلق نقاشات حامية في المنتديات الإسلامية حول ما إذا كان المصوّر هو الأشدّ عذاباً يوم القيامة أم المشرك لأنه هنالك حديث آخر للرسول يعد فيه المشركين بالعذاب الأشدّ، لا المصوّرين.

[4]صحيح البخاري، حديث حسن، رقم 5951. أيضاً ورد في صحيح مسلم، رقم 2108.

[5]القرآن الكريم، سورة الحشر، الآية 24.

[6]اقتباس من طارق عبدالله، مشاركة في منتدى صوتك (الرابط هنا.(

[7]هكذا تكلّم زرادشت، فريدريش نيتشه، ترجمة علي مصباح، دار الجمل، ألمانيا 2007، ص 169-170.

خاتمة
الفنّ، الخوف والحريّة

وفقاً للدين، رسم الله خطّاً عريضاً يفصل بين الفنّ والعبادة: المؤمن الملتزم سيستمتع بالجنّة فيما سيحترق الفنّان – الذي يتجرّأ على مضاهاة عمل الله – في النار.

التعارض هذا بين الفنّ والعبادة يحمل في الواقع رسالة خطيرة جداً عن الدين ويكشف عن خلل كبير في المجتمع الذي يقبل هكذا مقولة: قبوله بها يعني أنه مجتمع يبجّل الخوف، الهمود والطاعة العمياء على الشجاعة، الإبداع والعقلانية.
لشرح ذلك لا بدّ من مقارنة صغيرة بين الفنّ والعبادة: من جهة أولى هنالك العبادة الرتيبة المكوّنة من تكرير حركات رتيبة وكلمات رتيبة، لخمس مرّات في اليوم إن أراد المؤمن تأمين بطاقة دخول إلى الجنّة. إنها تجربة سلبيّة لا تتضمّن عمليّة عقلية أو فنّية أو إبداعية.

Figure 2: لوحة للفنانة العراقية عفيفة العتيبي (من مدوّنة مطر)

في الجهة المقابلة هنالك التجربة الفنّية ذات المنافع العديدة: في أقلّ الأحوال، التعامل مع النتاج الفنّي يوسّع الآفاق الثقافية، يصقل حواسنا ومقدراتنا الإبداعية، يرفع مستوى الوعي والإحساس البشري، يُخرج الطاقة السلبية، يساعد على التعبير عنّ أسمى الأحاسيس والأفكار وهو بكلّ بساطة أمرٌ ممتع وجميل.

أما التجربة الفنّية الإيجابية – الخلق الفنّي، فهي التعبير الأسمى عن المقدرات البشرية إضافة إلى أنها التعبير الأبلغ عن الروح البشرية وأكثر مشاعرها وتطلّعاتها حميميّة. الفنّ هو السجل التاريخي الأجمل لتطوّر الوعي البشري؛ يمكننا بسهولة أن نقول أن قوّة الخلق والإبداع – التي تظهر بأبهى حللها في الفنّ – تعبّر حقيقة عن جوهر الإنسان. لذلك الفنّ هو أيضاً الإيمان

بالمقدرة البشرية، تلك المقدرة التي قادت البشر إلى اكتشاف النار، الأبجدية، الزراعة وكل شيء آخر، وسمحت لهم في الأساس أن يكتبوا النصوص الدينية ‘‘المقدّسة’’. استعمال مقدرة العقل البشري والإيمان بها هو جوهر الحضارة الإنسانية.
بالتالي إن هذه المناقشة لا تدور ببساطة حول الفنّ بل هي في الواقع حول شخصيّة المجتمع. إن الحديث عن منع الفنون يفضح نظرتنا للمجتمع الذي نريده لأنه يساوي القول أننا نريد أن نغلق أهم جزء في عقولنا، الجزء نفسه الذي جعلنا بشراً في الأساس والذي أنقذنا ولا يزال ينقذنا كلّ يوم من الأخطار التي تحيط بنا – ومنها أنفسنا.
ما هي طبيعة المجتمع الذي يمكن أن يتسامح مع تحريم الفنون والإبداع؟ إنّه بالتأكيد مجتمع يخاف من المقدرات البشرية لدرجة أنّه يعلّم أفراده أن يكونوا سلبيين بالكامل وأن يطفأوا أعظم مقدرة عقليّة لديهم. إنه مجتمع يطلب من أفراده أن يرفضوا الإيمان بإمكانيّاتهم وألّا يصدّقوا عقولهم نفسها، تاركاً لهم مخرجاً وحيداً متمثّلاً في الإيمان بالنصّ، برجل الدين، وبالقائد.
بعد وضع الشعارات والتبريرات الدينية جانباً، سنجد أن تحريم الفنون يعبّر في الحقيقة عن خوف ديني عميق من المقدرات البشرية ورغبة أعمق بخلق مجتمع سلبي ‘‘ميت’’ يسهل التحكّم به من قبل الثيوقراطيين والديكتاتوريين.

فالخوف هو الشعور الأقوى في المجتمعات التي فقد المواطنون العاديون ومعهم النخبة الدينية والثقافية والسياسية قدرتهم على التحكّم في مستقبلهم، وحيث فقدوا قدرتهم على مواجهة مشاكلهم واعتادوا على حالتهم البائسة لدرجة باتوا معها الآن يرتعبون من أي محاولة لتغيير الوضع الراهن. بدل الوقوف ومواجهة الرياح العاتية، تفضّل هكذا مجتمعات الاختباء خلق الحيطان السميكة وتحريم كل عمليّة قد تؤدّي إلى التشكيك بالأبواب المغلقة (وخاصة الكتابة والفنّ).

* * *

إن المجتمعات التي تشيطن الفنّ وتقدّس العبادة الصامتة والنَسخ الخالي من الروح والعقل، هي نفسها التي تفضّل حفظ الآيات القرآنية على تعلّم كيفية تفسيرها، هي نفسها التي تفضّل أن تنتظر مهديٌّ غائب (أو مسيح ثانٍ) لينقذها بدل أن تأخذ مصيرها بيدها وتواجه مشاكلها بنفسها، وهي نفسها التي تغطّ في نوم عميق في الوقت الذي تلوم فيه الآخرين على تخلّفها.
للأسف، هذه هي حالة معظم المجتمعات العربية التي تتصرّف بلامبالاة تجاه مشاكلها ومنها القيود النامية على الحريّة بمختلف أشكالها.
كيف يمكن للأصوليين أن يعتقدوا أن تعزيز الخوف من الإبداع والخلق والفكر الحرّ سيجعل من المجتمعات العربية أقرب إلى الجنّة، يبقى سؤال من دون إجابة مقنعة. لكن الواقع يبقى أن عدائهم تجاه الفنّ متجذّر في عدائهم العميق تجاه الحريّة: إن تَحرُّرَ العقل البشري وبات الناس قادرون على إيقاظ الإله النائم في قلوبهم، فإن فكرة ‘‘الله’’ المرتكز على الخوف والأسطورة ستتقوّض، وكل أيدولوجية الطبقات الحاكمة في العالم العربي والإسلامي، المرتكزة على تعظيم السلبية والطاعة المطلقة والعبادة السياسية والدينية لله والقائد، ستتداعى... وستشهد في نهاية المطاف، نهايتها.

[انتهى]